

ماهية سوء المعاملة ومختلف أشكالها

كاميلا هادي (جامعة الجزائر 2)

مقدمة:

لكي ينمو الطفل ويكبر في انسجام وتناغم، ينبغي أن يعيش في وسط عائلي يسوده جو من التفاهم، الحب والسكينة. فالطفل حساس جدا نحو جوه الأسري والتوترات التي يمكن أن تحدث بين أفراد الأسرة الواحدة. فحتى وإن كان الطفل غير قادر على فهم المشاكل التي يمكن أن يواجهها الكبار إلا أنه بات من المستحيل إخفاء وجود مشكلة ما.

وحتى يكون على استعداد تام لبناء حياة مستقلة وخاصة به في المجتمع، من المهم تنشئة الطفل في جو مشبع بالمثل العليا والأخلاق السامية. فمنذ سن مبكرة، يبذل الوالدين وجميع الأطراف الساهرين على رعايته وتربيته قصار جهدهم لتلقينه وتعليمه روح السلام والتسامح والحرية. كما ينبغي أيضا منحه حماية خاصة ورعاية مميزة، وبالأخص الحماية القضائية وذلك قبل وبعد ميلاده، وطوال طفولته الأولى نظرا لعدم النضج الجسمي، النفسي والفكري لديه، إلى غاية بلوغه سن الرشد والاستقلالية. غير أنه ومع الأسف الشديد، ليس كل الأطفال من يحظى بهذه البيئة المعيشية المثالية، فالبعض منهم يتعرضون للضرب والاعتداء على أجسادهم، عقولهم وقلوبهم. هذه الظاهرة التي يصعب تقبلها ليست أمرا جديدا علينا، فإذا ما عدنا بالزمن قليلا إلى الوراء، سنجد أن تاريخ البشرية حافل بأمثلة قاسية وبشعة توضح إساءة معاملة الأطفال. (Gousset. D et al, 1997)

نبذة تاريخية:

من أجل الإلمام بالمعاني التي يغطيها اليوم كل من مصطلح المعاملات السيئة وسوء المعاملة، سنحاول تقديم نبذة تاريخية عن أصل هذه العبارات التي نعتبرها كمترادفات.

في المؤلفات العلمية، يعود مفهوم المعاملات السيئة les mauvais traitements إلى Tardieu Ambroise، أستاذ الطب الشرعي في كلية الطب في فرنسا أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر XIX، والذي يعد أول من وضع الجدول العيادي. ففي هذه الفترة، وبشكل عام بدأ اهتمام المجتمع بأوضاع الأطفال والتدابير التشريعية لحماية الأطفال التي بدأت تنشر تدريجياً. حيث دعا الطبيب الشرعي إلى التدخل في الإجراءات القضائية لتقديم المشورة الطبية، ووضع تقرير حول مختلف أشكال المعاملات الجسدية السيئة المصاحبة أحياناً بمختلف أنواع الحرمان. وبعد مرور 100 سنة من ذلك، أعاد أطباء شمال أمريكا تحديث مفهوم المعاملات السيئة اتجاه الأطفال، واستحضر صوراً إشعاعية لتدعيم حالات الأطفال المعنفين les enfants battus.

إن يمكن القول بأنه ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت تشير المعاملات السيئة إلى الأطفال المعنفين، وإلى الأطفال ضحايا نقص الرعاية من طرف الوالدين أو بدائل الوالدين وهو ما نسميه اليوم بالإهمال الجسيم la négligence grave.

ثم انطلاقاً من سنة 1970، بدأ تدريجياً توسيع المصطلح ليشمل بذلك الإساءة الجنسية les abus sexuels الممارسة على الأطفال، وأخيراً القسوة النفسية la cruauté mentale أو ما يدعى أيضاً بالعنف النفسي la violence psychologique. (Desquesnes.G, 2011, p 13)

1- سوء المعاملة وعلاقتها بالأوساط الفقيرة: يمكن الإشارة فيما يلي إلى أن ظهور سوء المعاملة تعلق قديماً بالأوساط الفقيرة وقد اهتمت بهذه الظاهرة العديد من المجالات: المجال الاجتماعي، الطبي، الصحافة وحتى الأدب، لنصل في الأخير إلى النموذج الطبي - النفسي لسوء المعاملة. -الكتابات الاجتماعية:

في النصف الأول من القرن 19، قام الطبيب L.R.Villermé الذي عرف بإدانتته للمدة الزمنية الطويلة لعمل الأطفال في اليوم وذلك في فصل كرسه للأطفال العاملين

في المصانع. حيث لاحظ أن الأطفال كانوا يتعرضون للمعاملات السيئة بعيدا عن المصانع. فيقول L.R.Villermé: " أن هذا من سوء حظ ميلادهم ونتيجة للعادات الخسنة والقاسية للطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها." حيث يصف العمال بالمتطرفين، الفجار، المشبعين بالعادات السيئة والرزائل التي تلقوها من آبائهم والذين بدورهم سيقومون بنقلها لأطفالهم.

من جهة أخرى، نجد Blanqui.M في تحقيق قام به عام 1848، بطلب من أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية التي تعالج شروط حياة الطبقة العاملة في أكبر مراكز التصنيع في فرنسا، والذي قام بدوره بانتقاد إساءة استخدام الأطفال والمجهودات الضعيفة لتربيتهم، وكذا المساكن الضيقة والمعتلة، وفي هذا السياق يقول Blanqui.M: "أكد أن المساكن المعتلة لهؤلاء هي مصدر كل هذا الشقاء والرزائل، وكل مصائب حالتهم الاجتماعية "

نجد أيضا دراسات Frédéric le Play الثرية بالمعلومات والغزيرة من حيث التفاصيل، التي قدمت ملاحظات قيمة حول طريقة عيش أسر العمال في منتصف القرن التاسع عشر في فرنسا وفي أوروبا.

فيعتبر Frédéric le Play في كتابه الذي يحمل عنوان عمال العالمين 'Ouvriers des deux mondes'، أن الأسرة هي النواة الأساسية للمجتمع، حيث قام بتقييم تركيبتها وميزانيتها وطريقة عيشها. كما نجد في قسم " تاريخ وأعراف الأسرة" 'Histoire et mœurs de la famille' من هذا الكتاب تم العثور على معلومات حول شروط المعيشة وتربية الأطفال، حيث يذكر المؤلف ' التهديدات والضرب' التي يستخدمها الآباء حتى يمتثل الأطفال لطاعتهم ولكن استعمال القوة كتقنية للانضباط لم يمنع من وجود اهتمام موجه نحو تربية وتنشئة الأطفال: فعلى سبيل المثال الأم كانت تمنع الكلمات البذيئة عند أطفالها. فعادة نجد le Play يدين نقص مراقبة الأم لأطفالها وتركهم يلعبون في الأماكن العمومية. فبالنسبة له ما يستحق الفضل، يمكن لنا ذكر ذوي السلوكات المقبولة اجتماعيا، فبالإضافة إلى عائلة عامل المطبعة، نجد مزارعي مجتمع Lavedan الذين يتعارضون، فمثلا: مع مزارع التشغيل، فنجد العامل

البدوي يزرع الفتنة، أين يقوم بسلوكات ذميمة (اغواء الفتيات ثم التخلي عنهن، وحاملي داء الزهري). في حين نجد أن لمزارعي Lavedan بنية أسرية متأصلة: حيث تبقى السلطة الأبوية هي المسيطرة، فبفضلها يتم المحافظة على النظام والإحترام في الأسرة، وهذا ما سيسمح بضمان استقرارها واستمراريتها. وفي هذا المعنى يشير le Play قائلا أنه: " يتم التعامل مع الأطفال بلطف، وتقدم تضحيات كبيرة لتربيتهم (...)، حيث يشاركون بكل حرية في ألعاب من هم في نفس عمرهم." فإن هذه الحياة التي تسودها الرفاهية والأخلاق لدى المزارعين ترجع وفقا لـ le Play إلى الحفاظ على التقاليد والممارسة التقية للديانة المسيحية.

ويؤكد le Play قائلا: " أن الأطفال غالبا ما يكونون متسخين وذوي ألبسة رثة " وعليه يرجع هذا النقص في الرعاية إلى البؤس والحرمان الذي تعيشه الأسرة. وبالرغم من ذلك يتم رعايتهم من طرف أوليائهم بتقديم العاطفة والحنان. نجد بأن فتاة ذات 8 سنوات هي المسؤولة عن رعاية أشقائها الأصغر سنا وتعوض الأم العاملة وذلك عكس الأسرة البرجوازية، أين نجد الأم التي تسهر على نقل القيم الأخلاقية وتشارك في تعليم أطفالها.

Le Play مثل Villermé قام بتحليل الطبقة العاملة بالحكم عليها من الناحية الأخلاقية، وفي هذا الإطار بدأ تخمين المعاملات السيئة اتجاه الأطفال. أما اليوم فسوء معاملة الأطفال لا تزال تفهم ضمن السجل الأخلاقي، ففي التحليل السوسولوجي لسوء المعاملة في المجتمع المعاصر، يعتقد Schultheis et al أن تسليط الضوء على الإخفاق والتقصير الوالدي باعتباره من أسباب سوء المعاملة أتى ليهذب قبل كل شيء مسألة اجتماعية متعلقة بعدم المساواة الاجتماعية والتطبيقات التربوية للطبقات الاجتماعية.

باختصار فإن عدم المحافظة على الأخلاق بين الطبقات الفقيرة وبالأخص العاملة يهدد النظام الاجتماعي المؤسس.

(Desquesnes.G, 2011, p 14-15-16-17)

2- الخطاب الطبي: le discours médical

في الدراسة الطبية-الشرعية حول قتل الأطفال l'infanticide التي نشرها Tardieu سنة 1868، قا بتقرير احصائي حول قتل الأطفال والظروف المعتاد الحدوث فيها: التي تعود غالبا إلى ولادة سرية، حيث تقوم الأم بقتل الطفل الذي أنجبته للتو وتخفي ولادته ووفاته على حد سواء.

ف نجد أن أكبر عدد من المتهمين وأغلبهم من سكان الأرياف من بينهم خادمت المنازل في المدن. بحيث يعتبر Tardieu أنه " نظرا للمستوى التعليمي، ومن بين المتهمين بجريمة قتل الأطفال، وجد أن معظم الأفراد تقريبا أميون تماما (...)، فالعلاقة حتمية بين الجهل والقسوة أين نجد أن قتل الأطفال في كثير من الأحيان تكون نتيجة لذلك" فالمؤرخون اليوم يصفون قتل الأطفال بكونها جريمة النساء في البؤس و الوحدة. من ناحية العنف الجنسي، أجمع الأطباء الشرعيون على أن الإغتصاب وهتك العرض يقتصران على الطبقات الفقيرة. حيث اقترح الطبيب الشرعي Paul Bernard في مقال له سنة 1880، مختلف الجداول حول التوزيع من حيث المهنة والمستوى التعليمي لمتهمي هتك العرض واغتصاب الأطفال، ونوع الجريمة، التي هي في زيادة متواصلة، انطلاقا من 1833 إلى 1883. يشير Bernard إلى أن المستوى التعليمي للمتهمين يتزايد خلال هذه الفترة ويقول: " أن مايشير الفضول أكثر هو عدد الأفراد الذين تلقوا التعليم العالي ووجهت إليهم تهمة هتك عرض الأطفال، والذي يتزايد باستمرار إلى غاية 1880 عندما وصل إلى حد الأقصى (...). حاليا الأفراد الذين تلقوا تعليم عالي يقومون بمهاجمة الأطفال أكثر من الراشدين، كما أننا على علم بأن هتك عرض الأطفال هو أكثر شيوعا في المدينة، أي في الأوساط المتقفة والمتعلمة.

بالنسبة إلى Thoinot، أستاذ الطب الشرعي في جامعة باريس في أوائل القرن 20، يمكن تفسير الاغتصاب وهتك العرض على النحو التالي، حيث يشير قائلا إلى أنه: "يحدث دائما في الأوساط الفقيرة، أين لا تملك الأسرة إلا غرفة واحدة، وأحيانا أخرى إلا سرير واحد. وفي احدى الليالي، حيث يدخل الأب ثملا ويرتكب الإعتداء على ابنته."

يركز Thoinot على أن الجرائم ضد الأخلاق لا ترجع كلها إلى حرمان الفرد من التعليم. ففي واقع الأمر، الوضع الاجتماعي للمتهم وللضحية يؤخذ بعين الاعتبار من طرف الطبيب الشرعي فيما يخص القضايا الجنسية.

ففيما يتعلق بالمعاملات السيئة في الطبقات الغنية التي أشار إلى وجودها Bernard سابقاً، يسودها نوع من الممنوع الضمني *interdit tacite*. يتواجد هذا الممنوع الاجتماعي في تحليل قضايا المعاملات السيئة التي تفصل فيها المحاكم في نهاية القرن 19: بحيث لاحظ J.J.Yvorel في دراسته لأكثر من 600 دعوة قضائية صدرت في فرنسا فيما يخص العنف والإعتداءات الممارسة على الأطفال في عام 1891، بأن المتهمين ينتمون أغلبهم إلى الأوساط المتواضعة للعمال في المدن أو في الأرياف. أما الأوساط الغنية فهي غائبة عن المحاكم.

(Desquesnes.G, 2011, p17-18-19)

3- ميدان الصحافة والأدب: la presse et la littérature

ظهرت صحيفة *le petit journal* في بداية سنة 1860، التي كان هدفها إعلام سكان باريس بالأحداث الوطنية، بقدر كبير من التفصيل، وبوقائع مختلفة، لتساهم في تنبيه الرأي العام حول قصص "الأطفال الشهداء" *les enfants martyrs*. نجد أن A.C Ambroise Rendu بعد فرزها لمختلف الوقائع المستمدة من أربع صحف وذلك ابتداء من 1870 إلى غاية 1910، أبرزت أنواع متعددة من تصورات العنف العائلي: حوادث منزلية، إهمال، قتل الأطفال ومعاملات سيئة والتي في أغلب الأحيان تحصل في الأماكن الشعبية وبالتحديد في المدن. فالأطفال الشهداء مثل النساء المعنفات يعيشون في بيئة يسودها الإحراج والشقاء. كما وصفت الأولياء بعديمي الجدارة وذلك من خلال صورة الأسرة التي يقدمونها للواجهة والتي لم تعد تصون النظام والأخلاق، والتي تتعارض مع نموذج الأسرة البرجوازية، إضافة إلى أم غير صالحة، خالية من الحب الأمومي. بدأت تظهر العديد من الروايات بشأن الطفولة التعيسة وأو الطفولة المساء معاملتها في النصف الثاني من القرن 19، حيث يتجلى بوضوح وجهة

نظرها المتمثلة في أن المعاملات السيئة اتجاه الأطفال تحدث في الأوساط الاجتماعية الفقيرة.

سنعتمد فيما يلي على روايات واقعية، ولوحات فنية للحياة اليومية وعادات مختلف الطبقات الاجتماعية خلال النصف الثاني من القرن 19.

بالنسبة لـ Emile Zola، العادات الفاسقة للفقراء والمعاملات السيئة اتجاه الأطفال هي نتيجة للوسط الاجتماعي والوراثة. فنجد في خلفية كتاب سعادة الحياة la joie de vivre، الذي ظهر في عام 1884، مجموعة من الأطفال المعنفين و المساء معاملتهم الذين ينتمون إلى الأوساط الفقيرة للصيادين، وتم وصف أوليائهم بزناة المحارم، سكارى وعنيفين. حيث نجد أن Pauline الشخصية الرئيسية للرواية التي تملك الروح الطيبة و التي تقوم برعاية هؤلاء الأطفال وتوفير الراحة لهم، كانت قد استغلت من طرف عمته التي تبنتها.

بعد الإعراف الرسمي بالمعاملات السيئة اتجاه الأطفال من طرف مجموعة من الأطباء في بداية 1960، تطورت العديد من البحوث تطورا كبيرا، خاصة من حيث وجهة النظر الطبية والنفسية. وهذا ما أدى إلى ظهور ما يسميه Hacking بالنموذج الطب-نفسى لسوء المعاملة. (Desquesnes.G, 2011, p 19-20)

4- النموذج الطب-نفسى:

في هذا التناول، كانت تفسر سوء معاملة الأطفال بإرجاعها إلى شخصية الوالدين أو إلى الإضطراب العقلي الذي قد يعاني منه أحد الوالدين. وبعد أن تم التخلي عن فرضية وجود مرض عقلي عند الوالدين لتفسير المعاملات السيئة بحق الأطفال، ركزت البحوث على خصائص شخصية الوالدين المسيئين.

بين H.Kempe في بداية سنة 1960، بأن الأولياء المسيئين كانوا اندفاعيين، غير ناضجين ومتمركزين حول الذات. في الفصل المكرس للمنهج العلاجي للأولياء في كتاب Kempe و Helfer الذي يحمل عنوان "الطفل المعنف وعائلته" يؤكد الطبيبان العقلانيان Steele و Polock، على أن " الأولياء الذين يسيئون معاملة أطفالهم ينحدرون من جميع الطبقات والفئات الاجتماعية، الإقتصادية والمهنية"

في البحوث الطبية الأولى في شمال أمريكا، يحتل سياق الحياة مكانة ثانوية بالمقارنة مع الأعمال المنجزة من طرف الأطباء الفرنسيين التي أكدت على البيئة الصعبة للعائلات المسيئة (بطالة، عدم استقرار الوظيفة، نقص الموارد، ظروف سكنية سيئة... وغيرها)

فإذا كانت الطبقة الدنيا وربع العالم حسب P.Strauss وفريقه، هي المسيطرة بين الأسر المسيئة، فيعني ذلك بأن هذا النوع من البيئة خاضع أكثر إلى رقابة الخدمات الاجتماعية.

لذلك يعترف العديد من المؤلفين بأنه إلى جانب اضطراب الشخصية الوالدية (عدم تحمل الإحباط، انعدام العاطفة)، هناك " شروط وظروف بيئية تعزز المعاملات السيئة" وفي الآونة الأخيرة، نجد نفس التفكير لدى Léo Kreiser، مؤلف فصل الأطفال ضحايا الإساءة في كتاب le nouveau traité de psychiatrie de l'enfant et de l'adolescent، حيث يذكر الظروف الأسرية (عدم الاستقرار الزواجي، أطفال من زواج مختلف، ايداع الأطفال) والاجتماعية لسوء المعاملة التي تعتبر كمرض العدوانية واستغلال الطفل: " العديد من الأطفال ضحايا الإساءة ينتمون إلى ما يسمى بالحالات الاجتماعية: أسر محرومة على المستوى الاجتماعي-الاقتصادي والثقافي، مغلوبية بسبب الظروف المعيشية السيئة، مستوى مهني منخفض، بطالة. مساكن غير لائقة تسودها الفوضى والأخلاقية.

Léo Kreiser لا ينكر تواجد سوء المعاملة في العائلات المنتظمة، التي تتوفر فيها ظروف اجتماعية وثقافية عادية، أو مرتفعة. ولا يعتبر السياق الاجتماعي والاقتصادي للحياة عامل سببي، بل يعود الأمر إلى عامل التيسير، وجهة نظر يشترك فيها العديد من الأطباء الذين يحدثون عن عامل الجروحية. وبالتالي استبعاد كل سببية خطية بين الوسط الاجتماعي الضعيف والسلوك المسيء.

عبر Haking عن وجهة نظر متطرفة فيما يتعلق بالنموذج الطب-نفسى، فوفقا له هذا النموذج التفسيرى قد تجاهل مسألة الطبقات الاجتماعية. وبذلك اعتبر اساءة

معاملة الأطفال Child abuse كمرض، قادر على المساس بجميع الفئات الاجتماعية، والمحددات الاجتماعية للمشكل، ونعني بذلك الفقر تم القضاء عليه .
(Desquesnes.G, 2011, p 21.23)

التعريفات المختلفة لسوء المعاملة: عرف Finkelhor و Korbin سنة 1988 الإساءة على أنها : " كل معاملة سيئة يتعرض لها الطفل، الناتجة عن فعل انساني مرفوض، والتي تحدث في البيئة المباشرة وبامكاننا الوقاية منها."

هذا التعريف لديه ميزة ابراز المظاهر الخاصة بالإساءة. وبالتالي فان السلوك الوالدي المقبول في زمن معين أو في مجتمع معين على وجه الخصوص، يمكن اعتباره معاملة سيئة في وقت آخر أو في سياق ثقافي آخر. (Labbé. J, 2009, p18)

وعرفت المنظمة العالمية للصحة OMS إساءة معاملة الطفل على أنها تضم جميع أشكال الإساءة الجسدية و/ أو النفسية الوجدانية، الإساءة الجنسية، الإهمال أو الاستغلال التجاري و غيرها، مما يسبب ضرر فعلي أو محتمل على صحة الطفل، بقاءه، نموه أو كرامته ضمن سياق علاقة مسؤولية، ثقة أو سلطة.

(Lopez.G, 2013, p1)

في حين اقترح المرصد الوطني للعمل الاجتماعي ODAS سنة 2001 تعريف الطفل المساء معاملته: على أنه « ذلك الطفل ضحية العنف الجسدي، القسوة النفسية، الإساءة الجنسية، الإهمال الجسيم، لديها انعكاسات خطيرة على نموه الجسدي والنفسي.

(Fédération française de psychiatrie, 2004, p183)

من المهم التركيز على الطابع الصدمي الذي يمكن أن يسببه التعرض للإساءة، حيث تعرف الصدمة النفسية على أنها: " حدث داخلي يثير اضطراب لدى الفرد وله انعكاسات فورية ومباشرة المجتمعمة تحت مصطلح "الصدمة الإنفعالية " (Bourguignon. O, 2000 , p53)

توضح Anault. M قائلة: "... تترجم الصدمة النفسية بالأثر الناجم عن اللقاء مع الحدث الصدمي، عندما يتم تحريك شحنات الطاقة للتكيف مع الحدث الصدمي الذي يتجاوز قدرات الفرد على الإصران." (Anault. M, 2006, p88)

ويبقى من الضروري توضيح أن الخصائص الموضوعية للوضعية ليست ما يجعل الحدث صدمي، وإنما مستوى الإضطراب أو اختلال التنظيم الداخلي. هذه العبارة تؤكد على أهمية الطريقة التي ينظر بها الفرد للحدث الذي تعرض له والصدى الإنفعالي الذي يليه. (ibid, 2006, p88)

يمكن للصدمة أن تنتج عن حدث وحيد يخل بالقدرات الدفاعية للشخص، كالكوارث، الحوادث، فقدان شخص عزيز... وقد يعود أيضا سبب ظهور الصدمة النفسية إلى تراكم الأحداث المكروهة أو تشابك أوجه القصور الشديدة والمتكررة، مثل الاعتداء الجنسي، الإهمال الأسري، الإساءة الجسدية. إضافة لذلك تشكل الصدمة النفسية تهديدا للسلامة والنمو الشامل (الوجداني، الاجتماعي، الفكري...) للفرد وليست جزءا من مجموعة أحداث الحياة العادية. تمثل الصدمة إذن حدث يكون الشخص فيه غير مستعدا نفسيا، يفوق موارده الداخلية، كقدرته على الفهم باستمرار محتوى عالمه المعرفي والوجداني. (Anault. M, 2006, p88)

وكما يؤكد Cyrulnik. B سنة 1999 أنه حتى يقال عن حدث ما أنه صدمي، لابد أن يصاحب بانقلابين، ويعني بذلك " الانقلاب في الواقع " أو الآثار الناجمة عن الخصائص الموضوعية للحدث. وانقلاب في تصورات الواقع أو الطريقة التي يقيم بها الفرد ومحيطه الحدث الذي يواجهونه.

الإساءة النفسية:

يبدو أن الإساءة النفسية يصعب تعريفها وتقييمها. على عكس الإساءة الجسدية التي تبدو أكثر وضوحا والتي تتجسد غالبا تحت في أفعال ظاهرة. فالإساءة النفسية هي في العادة جو عام، محيط، وتكرار العديد من الأفعال المعزولة.

(Lecomte.J, 2004, p144)

إن الأعمال التي أنجزت حول المعاملات النفسية السيئة Mauvais traitements psychologiques هي ذات أصل حديث في حين تظهر القسوة النفسية la mentale cruauté بحق الأطفال في قانون العقوبات للعديد من دول الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنة 1977. كما أدت ضرورة النظر بجدية في المعاملات

السيئة النفسية إلى التركيز عليها خلال مؤتمر هام انعقد في Indianapolis عام 1983. أدى ذلك إلى اقتراح التعريف الأول للإساءة وهو كالتالي: "تظهر المعاملات السيئة النفسية للطفل والمراهق تحت شكل أفعال مرتكبة أو مهملة، تعتبر مضرة على الصعيد النفسي (...). هذه الأفعال هي واقع الأفراد الذين يتصرفون بمفردهم أو جماعة الذين هم في وضعية سلطة على الطفل بفضل خصائصهم (العمر، المركز الاجتماعي، المعارف... وجعله مستضعف. ولهذا فإن الآثار المترتبة عن هذه الأفعال يمكن أن تتسبب في أضرار مباشرة أو على المدى البعيد، سواءا على الصعيد السلوكي، المعرفي، الوجداني أو الجسدي. (Gabel. M, 1996, p54-55)

هذا التعريف يبرز الطبيعة الضارة على المستوى النفسي للآثار الفورية أو المباشرة وعلى المدى البعيد المترتبة عن المعاملات السيئة، حيث يركز على المركز الاجتماعي للأشخاص المتورطين، مرتكبي الجريمة والضحايا، ولكن لم يتناول الفعل المسيء نفسه.

انتقد McGee et Wolfe هذا التناول سنة 1991 واقترح تعريف إجرائي يركز على السلوكات المسيئة بغض النظر عن انعكاساتها على النمو اللاحق للطفل، حيث يقول أن: "المعاملات السيئة النفسية تضم مختلف نماذج التواصل طفل-والد التي يمكن أن تكون تضر بالصحة النفسية للطفل بالنظر إلى نقاط الضعف الخاصة به، وبالأخص مستوى نموه."

وفي الآونة الأخيرة، طورت APSCA الجمعية الأمريكية المهنية لإساءة معاملة الأطفال (American Professional Society on the Abuse Children) سنة 1995 دليل عملي للمعاملات النفسية السيئة من أجل أصحاب المصلحة. وفي هذا الدليل، اقترحت تعريف عام للمعاملات السيئة النفسية كونها: "نمط السلوكات المتكررة للوالد(أو للراشد الذي يعتني بالطفل) أو سلوك منعزل ولكن عنيف بإمكانه أن يقنع الطفل بأنه عديم القيمة، يائس، غير محبوب، غير مرغوب به، في خطر، أو أن قيمته الوحيدة هي أن يلبي احتياجات الآخرين. يركز هذا التعريف إذن على الرسالة التي

ينقلها الطفل من والده، دون إصدار حكم مسبق بالضرورة على الآثار الناجمة على المدى البعيد لمثل هذه السلوكيات. (Ibid, 1996, p55-56)

وأخيراً، يأتي تعريف Santé Canada سنة 2001 التي تعتبر العنف النفسي أو الانفعالي اعتداء على إدراك أنا الطفل بالإضافة إلى تصرفات وإهمال الأولياء أو مقدمي الرعاية الذين تسببوا أو بإمكانهم أن يحدثوا اضطرابات خطيرة على المستوى السلوكي، المعرفي، الوجداني أو العقلي. يمكن أن يشمل العنف الإنفعالي التهديدات اللفظية، الإهانة واستخدام الطفل ككبش فداء، التقليل من شأنه وإذلاله.

(Canada Santé, 2001)

تصنيف المعاملات السيئة النفسية:

يؤكد كل من Hart و Brassard سنة 1987 على الأشكال المباشرة، حيث هناك 6 أشكال للمعاملات السيئة: الرفض، الذم، الإرهاب، العزل، عدم الاكتراث بالمطالب العاطفية للطفل والفساد الأخلاقي. الشكل السابع يشير إلى الإهمال التربوي الذي أضيف في تصنيفات لاحقة.

- **الرفض Le rejet**: يشمل جميع السلوكيات التي تترجم عدم الاعتراف بشرعية احتياجات وطلبات الطفل، والتلميح بأنه لا قيمة له ومن المستبعد أن يكون محبوباً. فغالبا ما نربط الرفض بتنشيط تعابير تعلق الطفل. واستعمال هذا الأخير ككبش فداء، وفرض معاملة مختلفة عن تلك الخاصة بأفراد العائلة ورفض مساعدته، دعمه ومودته.
- **الذم le dénigrement**: مرتبط غالبا بالرفض، يشير إلى التقليل من شأن الطفل وحرمانه من كرامته. يمكن أن يظهر الذم على شكل الإهانة العلنية، واستعمال الألقاب والصفات الساخرة والتي تقلل من أهميته والمقارنات المجحفة والمهينة للطفل
- **الإرهاب Le terrorisme**: يشير الإرهاب إلى خلق مناخ مهدد، متقلب، عدائي وغير متوقع. فترهيب الطفل يعني إثارة المخاوف الشديدة عن طريق التهديد المباشر بالقتل، الهجر والعقوبات القاسية والبشعة، أو تهديده

بالأشخاص الذين يحبهم والأشياء المفضلة لديه، أو عن طريق فرض متطلبات غير واقعية ومتضاربة، وإخضاعه لتحمل الغضب المفرط وغير متوقع.

- **العزل (l'isolement/confinement):** يتم تعريفه من خلال منع وإيقاف الطفل عن التواصل الاجتماعي المعتاد الأمر الذي سيجعله يظن أنه وحيد في هذا العالم، وليس بإمكانه أن يعتمد على أحد. هذا الوضع يشمل الحد من حركات الطفل وذلك بحبسه، وعزله من خلال منعه من إقامة علاقات مع الأشخاص الراشدين، ومنعه من القيام بنشاطات خارج المنزل أو المدرسة ومنعه كذلك من إقامة علاقات صداقة مع أقرانه.

(Ibid, 1996, p57)

- **عدم الإكتراث للمطالب العاطفية للطفل l'indifférence face aux demandes affectives de l'enfant:** حيث تجسد الغياب النفسي للوالد عند الطفل. فعلى عكس الرفض الذي يتميز كونه نشط ومسيء بطبيعته، تتميز اللامبالاة أو التجاهل بطابع خامل ومهمل. هذا الشكل من المعاملة السيئة يمكن أن يظهر من خلال الحد من التفاعلات مع الطفل، عدم الإنصات له، وعدم الإستجابة له أو إظهار أي إهتمام لإنجازاته، نشاطاته ومشاريعه. يصاحب التجاهل بجو من البرودة وغياب عاطفة وتعلق الوالد بالطفل.

- **الفساد la corruption:** أو ما يسمى بالإستغلال، يعمل على تشجيع السلوكات المعادية للمجتمع أو المنحرفة لدى الطفل. تحريض الطفل بالاعتداء على الأطفال الآخرين (اغتصاب، تخريب)، تلقينه الدعارة أو شرب الكحول، تناول المخدرات وغيرها من المواد الضارة التي تعتبر جميعها أعمال فساد. فتشجيع الطفل على تبني سلوكات غير ملائمة أو تشجيعه بالتخلي عن استقلاليتته كلها تصرفات تدخل ضمن هذا الشكل من المعاملة السيئة.

(Ibid, 1996, p58)

- الإهمال *la négligence*: يشكل الإهمال المتعلق بالرعاية، الصحة البدنية والعقلية أو تعليم الطفل فئة إضافية تدخل ضمن تصنيف APSAC. هذا الشكل من الإساءة يضم رفض الإستجابة للاحتياجات أو الصعوبات ذات أصل إنفعالي، بدني، نفسي، وتعليمي. (Ibid, 1996, p58-59)

وفقا لـ Polansky وآخرون سنة 1981 يعد الإهمال الوضعية أين يسمح الوالد أو الشخص المسؤول عن الطفل عمدا أو عن إهمال شديد أن يعاني الطفل من ظرف ما يمكن له أن ينجو منه أو أن الوالد لم يقدم له العناصر المتفق على أنها ضرورية لنمو قدراته البدنية، الفكرية والإنفعالية. (Polansky, N.A, 1981)

من جهتها، اقترحت Santé Canada عام 2001 أن الإهمال يحدث عندما لا يوفر الوالد أو الأشخاص المسؤولين عن رعاية الطفل الشروط الأساسية للنمو العاطفي، النفسي والبدني للطفل. (Santé Canada, 2001)

فوفقا لكل من Gagnier و Pinard، يتخذ الإهمال 5 أشكال مختلفة: الإهمال الجسدي، الإهمال الطبي، الإهمال التعليمي، الإهمال العاطفي والإهمال الاجتماعي. بالنسبة لهؤلاء الباحثين يحدث الإهمال البدني عندما يكون الوالد غير قادر على حماية طفله من أخطار البيئة، توفير الغذاء والملبس، المسكن وكذا العناية الجسدية الضرورية لنموه. يشير الإهمال الطبي إلى التأخير أو رفض الوالد الموافقة على العلاج الطبي الضروري لصحة الطفل.

أما الإهمال التعليمي فيعني التقصير في توفير المحفزات المناسبة لنمو الطفل مثل المثيرات المبكرة ودعم المواظبة على الدراسة. يشير الإهمال العاطفي إلى غياب نفسي وعاطفي للوالد، سواء عدم القدرة على الفهم وتلبية مطالب واحتياجات الطفل. وفي الأخير، يبعث الإهمال إلى غياب أو نقص الموارد، السياسات أو البرامج التي تهدف إلى دعم الأطفال والعائلات. (Gauthier.S, 2010, p24)

فالإهمال بحكم أنه يعد صعوبة كبيرة، دائمة أو مؤقتة لدى الوالد في التعرف على احتياجات الضرورية لنمو الطفل: البدنية، الطبية، العاطفية، التعليمية. حيث تناول Gagnier و Pinard 2002 ص 40، الإهمال من وجهة نظر بيئية، فيعتبرانه

ظاهرة متعددة الأبعاد، ولا يمكن حصرها فقط عند الوالدين: " الإهمال عبارة عن اضطراب حاد في العلاقة بين والد-طفل وبين الأسرة والمحيط ويعود السبب إلى الهندسة المتغيرة، شخصية الوالد، خصائص الطفل والأسرة، خصائص المجتمع الذي تعيش فيه الأسرة إضافة على الظروف الاجتماعية والإقتصادية السائدة." (ibid, 2010,p24)

الإساءة الجسدية: يعد العنف الجسدي من أشكال الإساءة الأكثر شيوعا، يترك آثار جسدية حتى الموت. قد يبدو من السهل تعريف العنف الجسدي نظرا لوجود إصابات التي يمكن رؤيتها: مخاطية-جلدية، عظمية، الأسنان، العيون... يمكن أن تكون هذه الإصابات ناتجة عن اعتداء أو ذات أصل مفاجئ، مرتبط بمرض داخلي.

(Gousset. D,1997, p5)

حسب Mayer سنة 1997: " تظهر الإساءة الجسدية كشكل من أشكال الإعتداء، سوء استعمال القوة المفرطة، العنف أو الصدمات (Mayer.M, 1997, p11) من جهتها Santé Canada 2001 اقترحت أن العنف الجسدي يشير إلى الإستعمال العمدى للقوة على جزء ما من جسد الطفل، الذي يمكن أن يتسبب في إصابة عرضية، يمكن أن تشمل إلا على حلقة واحدة أين تم ضرب الطفل أو سلسلة من الحوادث. (Santé Canada 2001)

يمكن للعنف الجسدي أن يضم سلوكات كالرج بعنف، الخنق، العض، منح ركلات، حرق أو تسميم الطفل. فالعنف الجسدي مرتبط خاصة بالعقوبات الجسدية.

مظاهر الإساءة الجسدية: سنقوم بالعرض فيما يلي الوصف العيادي la description clinique وذلك حسب J.De Ajuriaguerra و D.Marcelli، فبالنسبة لهما تشخيص الإساءة les services لدى الطفل يبقى من مسؤولية الطبيب العام أو طبيب الأطفال: فغالبا ما يتدخل الطبيب العقلي للأطفال بعد أن يتم وضع التشخيص، والتركيز على دور الوقاية من حدوث الإنتكاس، ثم يليه تأطير الطفل وعائلته.

1- الإصابات الجلدية: **les lésions dermatologiques** فتعد الإصابات الأكثر بساطة والأكثر تكرارا: الكدمات و الأورام الدموية التي تقع في القوس الحاجبي **les arcades sourcilières**، في الأنف مع وجود كسر. بقع صلعاء، حروق) سيجارة، مكواة، ماء مغلي)، خدش، بتر، آثار القيود.

2- الكسور: (تتأذر **Silverman**): لدى الرضيع، يعد الكسر موضوع شك كبير، تشويه عضو مع تمزق المشاشي **arrachement métaphysaire** أو الانفصال السمحاق **Décollement périoste**. لدى الطفل، هذه الكسور لا تملك أي خصوصية في حين أن مواقعها تعكس كدمات مباشرة: كسر في الجمجمة، الضلع.

3- الأورام الدموية تحت الجافية **les hématomes sous-duraux**: كانت تعود إلى وصف تتأذر بعد أن تم التحدث مطولا عن الأورام الدموية تحت الجافية مجهولة السبب. فيمكن أن تظهر على شكل تشنجات، غيبوبة، نزيف. (J.De. Ajuriaguerra, D.Marcelli, 1984, p388-389-390)

الإساءة الجنسية:

يمكن تعريف الإساءة الجنسية كنشاط جنسي لا يمكن للطفل فهمه، والذي لا يمكن أن يوافق عليه، نظرا لعدم نضج النمو أو الذي يغتصب القانون أو المحرمات الاجتماعية. (Lopez.G, 2013, p2)

تعتبر منظمة الصحة العالمية OMS الإستغلال الجنسي للطفل الذي يكون ضحية راشد أو شخص أكبر منه سنا، بهدف ارضاء الرغبات الجنسية لهذا الأخير، يمكن أن تتخذ الجريمة أشكال مختلفة: مكالمات هاتفية بذيئة، الإهانات الفاحشة واستراق النظر، صور إباحية، علاقات أو محاولة إقامة علاقات جنسية، إغتصاب، زنا المحارم أو الدعارة. (Fédération française de psychiatrie, 2003, p183)

من الصعب تعريف الإساءة بدون الرجوع إلى التعريفات الجزائية، فبالنسبة إلى **Nathason. M** و **Guettier. B** فقد حاولوا تقديم معايير تشخيصية كالتالي:

- نشاط جنسي داخل الأسرة قبل سن 18 سنة، سواء غير مرغوب فيه، أو بالتواطؤ مع شخص أكبر بخمس سنوات أو أكثر.

- نشاط جنسي خارج الأسرة غير مرغوب فيه قبل سن 18.
 - أو نشاط جنسي خارج الأسرة قبل سن 13 مع شخص أكبر بخمس سنوات على الأقل. (Lopez.G, 2013, p2)
- يمكن تعريف اساءة المعاملة الجنسية على أنها كل مشاركة لطفل أو لمراهق في نشاطات جنسية ليس لديه القدرة على فهمها. ولا تتناسب مع أعمارهم ولا مع نموهم النفسي الجنسي. يتعرض تحت وطأة الإكراه، العنف أو الإغراء، أو تخترق المحرمات الاجتماعية. (Girodet.D, Mignot.C, 2011, p14)

قائمة المراجع:

- 1- Ajuriaguerra.D.J, D.Marcelli : Psychopathologie de l'enfant de l'adolescent, Paris, Masson, 2^{ème} édition, 1984.
- 2-Anaut, M. (2007). Humour et resilience à l'école. Dans B. Cyrulnik, & J.-P. Pourtois (Éds). École et Resilience, Paris : Odile Jacob. (pp. 327- 356).
- 3- Bourguignon, O: Facteurs psychologiques contribuant à la capacité d'affronter des traumatismes chez l'enfant. In Devenir, 12(2), 2000, 77-92.
- 4- Brunet. D : L'enfant maltraité- ou l'enfant oublié. Paris, France, l'Harmattan, Décembre 2005.
- 5- Chiland. C, Young. J-G : Les enfants et la violence. Paris, France, PUF, 2^{ème} édition, Mars 1998.
- 6-Cyrulnik, B : Un merveilleux malheur. Paris , Odile Jacob. (1999)
- 7- Daligand. L, Gonin. D : Violences et victimes. France, Méditations, 2000.
- 8- Damiani. C : Enfants victimes de violences sexuelles- quel avenir ? Paris, France, Hommes et perspectives, Septembre 1999.

- 9- De Becker.E : « L'enfant maltraité, la question de diagnostique », in l'information psychiatrique, 2010/3 Vol. 86, pp 296-276.
- 10- Desquesnes.G : « Pauvreté des familles et maltraitance à enfants : un état des lieux de la recherche, une question non tranchée », in les Sciences de l'éducation - Pour l'Ère nouvelle, 2011/3 Vol. 44, pp 11-34.
- 11- Fédération Française de psychiatrie : Conséquences des maltraitements sexuels les reconnaître les soigner, les prévenir. Conférence de consensus 06 et 07 nov 2003, in Neuropsychiatrie de l'enfance et de l'adolescence, n° 52, 2004, pp 182-189.
- 12- Gabel. M : Les enfants victimes d'abus sexuel. Paris, PUF, 3^{ème} édition, Novembre 1998.
- 13- Gabel. M : Maltraitance psychologique. Paris, France, Fleurus-Tardy, Avril 1999.
- 14- Gabel. M, Lebovici. S, Mazet. PH: Le traumatisme de l'inceste. Paris, France, PUF, 2^{ème} édition, Mars 1997.
- 15- Gauthier. S : Le processus de résilience chez les adultes ayant vécu de la maltraitance lors de l'adolescence ou de l'enfance. Mémoire présenté, Université de Chicoutimi du Québec, 2010.
- 16- Gousset. D et al : Maltraitance à enfants. Paris, Masson, 1997.
- 17- Labbé.J : « Maltraitance des enfants- perspective historique, dossier violence et maltraitance envers les enfants ». in santé, société et solidarité. N°1, 2009.
- 18-Lecomte, J : Guérir de son enfance. Paris : Odile Jacob. 2004
- 19- Lopez. G : Enfants violés et violentés- le scandale ignoré. Paris, Dunod, 2013.

-
- 20- Mayer, M. (1997). Les contextes écologiques d'incidence de mauvais traitements à l'égard des enfants dans la region de Montréal. Thèse de doctorat, Université de Montréal.
- 21- Nisse. Martine : l'enfance victime- comment faire face aux violences. Vendôme, France, PUF, Aout 1999.
- 22- Polansky. N.A, Chalmers, M.A., Bittenweiser, E., & Williams, D. (1981). Assessing adequacy of child caring: An urban scale. Child Welfare, 57(7), p 439-449.
- 23- Santé Canada (2001). Un cadre conceptuel et l'enfance surveillance de épidémiologique pour la maltraitée. Ottawa : Ministre des Travaux publics et gouvernementaux Canada. services